تحليل وثيقة خطبة حجة الوداع

المناسبة والظروف

خطبة الوداع ألقاها الرسول صلى الله عليه وسلم في التاسع من ذي الحجة السنة ١٠ هـــ، في حجة الوداع يوم عرفة من جبل عرفات (جبل الرحمة)، وهي آخر خطبة ألقاها عليه الصلاة والسلام. حضرها جمع غفير من المسلمين (نحـــو ١٢٥ ألفا من الصحابة).

نص الخطبة

(الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيّها الناس اسمعوا مني أبيّن لكـــم فإنّي لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيّها الناس إنّ دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ـــ ألا هل بلغت اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وإنّ ربا الجاهلية موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وقضى الله أنه لا ربا. وإنّ أوّل ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب.

وإنّ دماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإن مـــآثر الجاهليـــة موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو مـــن أهـــل الجاهلية ـــ ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

أما بعد أيّها الناس إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما ســـوى ذلـــك ممـــا تحرقون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس إنّما النّسئ زيادة في الكفر يضل به الذين كفـــروا يحلونـــه عامـــاً ويحرمونه عاماً ليوطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحلّ الله. وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلـــق الله السماوات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منـــها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان ـــ ألا هـــل بلغت اللهم فاشهد.

أما بعد أيّها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق. لكم أن لا يواطئن فرشهم غيركم، ولا يدخلن أحـــداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجـــروهن في المضـــاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فـــإنّهن

عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ــ ألا هل بلغت.... اللهم فاشهد.

أيّها الناس إنّما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال لأخيه إلا عن طيب نفس منه ــ ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

فلا ترجعوا بعدى كافراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه، ألا هل بلغت ... اللهم فاشهد.

أيّها الناس إنّ ربكم واحد وإنّ أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ــ ألا هل بلغت.... اللهم فاشهد قالوا نعم ــ قال فليبلغ الشاهد الغائب.

أيّها الناس إنّ الله قد قسّم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من ثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم).

تحليل نص الخطبة

هذا الخطبة ذات أهميّة كبرى، لم يسمع مثلها في طولها، ولما اشتملت عليه من الشرائع والهدى. والذي ذكرناه آنفا هو جلّ فقراتها، فعلى المسلمة إذا قرأها أن يتوقف عند كل فقرة منها، فإنها كواكب هدي تضيء للمسلم الدُجى.

هذه الخطبة النبوية هي عبارة عن توصيات ووداع. لخص الرسول صلى الله عليه وسلم فيها تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة وموعظة مختصرة.

فراح يخاطب في سفوح عرفات الأجيال والتاريخ بعد أدّى ما حمّله ربه من الأمانة والجهاد.

فبعد أن حمد الله وأثنى عليه وأمر بتقوى الله عز وجل والتزام أمره في السراء والضراء وفي المنشط والمكره.

ــ **فأوّل بنود هذه الخطبة:** الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض. وهذه التوصية ذكرها في الخطبة (إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم)، وكررها في خاتمة خطابه (إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال لأخيه).

ــ **أما البند الثاني:** الإعلان عن تحريم الظلم والربا، وكل عادات الجاهلية، فكل ذلك قد بطل أمره ومات اعتباره، فهو اليوم جيفة منتنة غيبتها شريعة الله في باطن الأرض، وتحت الأقدام.

ــ **أما البند الثالث:** يوضح لنا الألفاظ المرتبطة بخلق السماوات والأرض أي بداية الكون، حيث ذكر صلوات الله عليه وسلامه، أن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله، يوم خلق السماوات والأرض، وهذا معناه حسب كلام الرسول صلى الله عليه وسلم أن الكون كان على هيئة تختلف عن هيئته الحالية.

وبالفعل، إن المتتبع لحركة النجوم، تظهر له وكأنها ثابتة لا تتحرك، والسبب في ذلك يرجع للمسافة التي تفصلنا عن هذه النجوم، إلا أن الواقع يبرهن عكس ذلك، فالنجوم عمليا تتحرك بسرعة كبيرة، كما يقول رب العالمين: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) سورة يس الآية ٣٨.

ــ **أما البند الرابع:** الإعلان عن حقوق المرأة، والأمر بالاعتراف بها، وكذا حقوق الزوج على زوجته، (إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق). قد ثبّت الإسلام للمرأة حقوقها وحفظ كرامتها من قبل ولا يزال الرسول صلى الله عيه وسلم يوصي بها حتى توفاه الله، لكي يقضي على تقاليد الجاهلية بشأن المرأة نهائياً. فيجب على المسلمين في كل عصر وطور من الزمن أن يعملوا على ضمان حقوقها والاهتمام بها.

ــ **أما البند الخامس:** الإعلان عن وجوب الحفاظ على الوحدة الإنسانية، وإنما أساس التفاضل بين الناس لا يكون في النسب والحسب وإنما يجب أن يكون على أساس التقوى والعمل الصالح، (إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم). إنّ هذا الخطاب كان بمثابة رسالة حضارية، مفتوحة وموجهة للعالم أجمع، كيفما كانت ألوان الناس وألسنتهم وأجناسهم.

ــ **أما البند السادس:** الإعلان عن مصدرين أساسيين للتشريع في الإسلام لا ثالث لهما، والاعتصام بهما، للأمان من كل شقاء وضلال، هما كتاب الله وسنة رسوله. (فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه).

ــ **أما البند السابع:** تحريم الوصية للوارث، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم، (إنّ الله قد قسّم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية ..).

ــ **أما البند الثامن:** حرمة التبني والانتساب إلى غير الموالي (من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ..).

الأحكام والتوجيهات التي تضمنتها الخطبة

لقد جاء في نص الخطاب النبوي عدّة أحكام وتوجيهات تتعلق بحقوق الإنسان وخاصة حقوق المرأة وأخرى تهمّ العدالة الاجتماعية كتحريم الربا والتحريم التبني ...

يمكن تلخيصها في العناصر التالية:

١. حرمة الدماء والأعراض: (إنّ دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ... وإنّ دماء الجاهلية موضوعة).

٢. حرمة الربا: (إنّ ربا الجاهلية موضوع .... وقضى الله أنّه لا ربا...).

٣. الحذر من طاعة الشيطان: (إنّ الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ... فاحذروه على دينكم...).

٤. الوصية بالمرأة: (إنّ لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق .... فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهنّ خيراً).

٥. التأكيد على مبدأ الأخوة والوحدة الإسلامية: (إنّما المؤمنون إخوة... فلا ترجعن بعدى كافراً يضرب بعضكم رقاب بعض...).

٦. التمسك بكتاب الله وسنة رسوله: (فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وسنة نبيه...).

٧. التأكيد على مبدأ المساواة الإنسانية: (إنّ ربكم واحد وإنّ أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ...).

٨. بيان حق الميراث والنسب: (إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه...)

٩. التحذير من التبنّي: (من ادعى إلى غير أبيه.. فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين..).